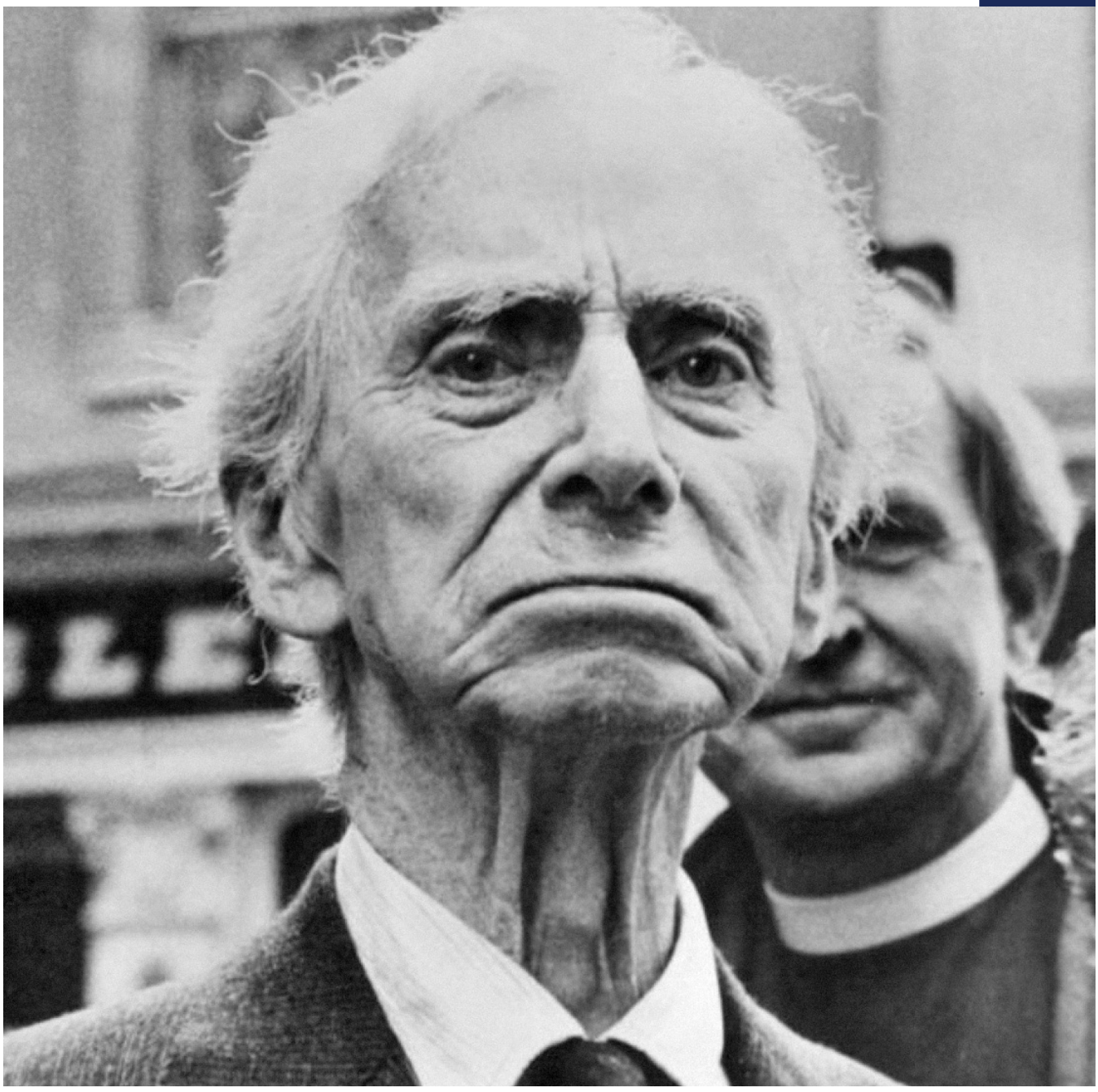

برتراند راسل.. فيلسوف القرن العشرين

أحب الرياضيات والمنطق، وكتب في الأدب والتاريخ والفيزياء

د. همدان زيد دماج

يعد الفيلسوف، وعالم الرياضيات البريطاني برتراند راسل **Bertrand Russell** من أهم فلاسفة القرن العشرين، ومن أعظم علمائه ومفكريه الذين أسهموا إسهاماً كبيراً في تأسيس الكثير من المفاهيم الثقافية والسياسية والاجتماعية السائدة في العالم اليوم، وفي الغرب على وجه الخصوص. كما كان واحداً من قلائل العباقرة الذين قرنوا أفكارهم وتنظيراتهم وآراءهم الجدلية بالتطبيق، والانخراط المباشر في العمل الاجتماعي والسياسي. آمن بالسلام والعدل، ونبذ العنف والتطرف، وكان مناصراً لحق الفلسطينيين في العودة إلى بلادهم.

إن الإبحار في حياة راسل رحلة مبهرة حقاً؛ ليس للطيف الهائل من ألوان المعرفة الإنسانية التي ساهم في تطورها بجدارة فحسب، بل وللسمات الإنسانية المدهشة التي امتلكتها شخصيته الفذة، التي جمعت بين الدقة والسخرية، الشجاعة والإنصاف، والعبقرية والعاطفة الجياشة.

شمولية المعرفة

ترك راسل ثروة هائلة من المؤلفات، قاربت السبعين كتاباً، إلى جانب العشرات من المقالات العلمية والندوات والمحاضرات في شتى مجالات المعرفة، بدءاً من العلوم التطبيقية والمنطق الرياضي وانتهاءً بالسياسة والتاريخ والنقد الأدبي.

في الرابعة والعشرين من عمره، نشر أول كتاب له بعنوان «الديمقراطية الاجتماعية الألمانية»، عام 1892. وبعد أعوام من البحث وعدد من الإصدارات، خلال تدريسه للرياضيات في جامعة كامبريدج، ألف –بالاشتراك مع عالم الرياضيات ألفرد وايتهد– كتاب «مبادئ الرياضيات»، الذي يعد «أحد الإنجازات السامقة التي حققها العقل البشري»[1]، وواحداً من الكتب المهمة التي ساهمت في الفكر المنطقي المعاصر.

واصل راسل بعد ذلك كتابة المقالات العلمية ونشر الكتب التي سرعان ما أكسبته شهرة عالمية في مجال الرياضيات ومبادئ الفلسفة والأخلاق والتربية والفيزياء. ولكي نبين تنوع اهتماماته وإسهاماته في الفكر والمعرفة، نسرد هنا عناوين بعض كتبه، ومنها:

1876 (بعمر الأربع سنوات)

«مشاكل الفلسفة» (1912)، «مبادئ إعادة البناء الاجتماعي» (1916)، «تحليل العقل» (1921)، «ألف باء الذرّة» (1923)، «ألف باء النسبية» (1923)، «حول التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة» (1926)، «الدين والعلم» (1935)، «السلطة: تحليل اجتماعي جديد» (1938)، «في فلسفة العلم» (1956)، و«عن جرائم الحرب في فيتنام» 1967م؛ هذا بالإضافة إلى مجموعتين قصصيتين، هما: «الشيطان في الضواحي» (1953)، و«كوابيس الشخصيات البارزة» (1954).

1893

وفي عام 1969، وقد بلغ من العمر 97 عاماً، صدرت سيرته الذاتية في ثلاثة مجلدات[2]، وكان لصدورها صدى كبير، واعتبر عملاً فريداً بين سير العظماء في الربع الأخير من القرن الماضي. وفي سيرته الذاتية روى راسل قصة حياته بحماس، وسحر، وصراحة تامّة، ودافع فيها بقوة عن آرائه الشخصية ومعتقداته الفلسفية.

في عام 1950، حاز على جائزة نوبل للأدب؛ تقديراً «لكتاباته المتنوعة والمهمة التي دافع

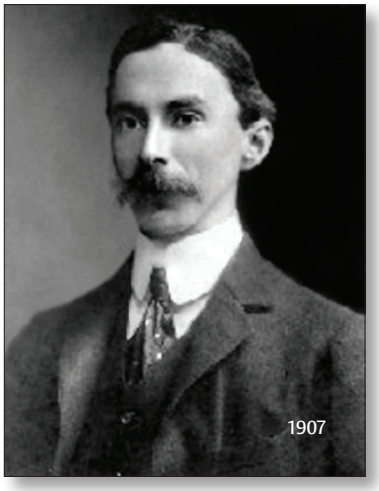
1907

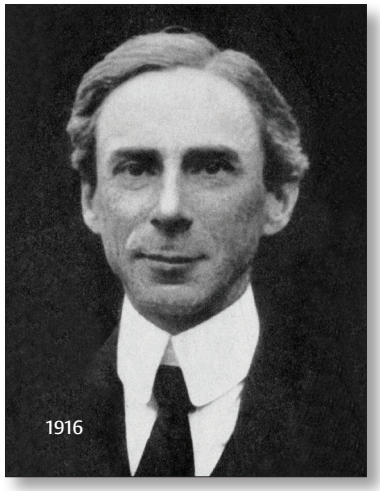
1916

تأثر بالفيلسوف الألماني كانط Kant؛ لكنه وجد أن فلسفته يكتنفها الغموض، وأنها أسقطته في وهدة من الطلاسم الميتافيزيقية المحيرة، حسب توصيفه..

فيها عن المثل الإنسانية وحرية الفكر»، كما جاء في بيان الجائزة، ليستمر بعد ذلك، ولعشرين عاماً أخرى، في مزاولة نشاطه الفكري الفلسفي، وجهوده السياسية، خدمة للمبادئ والقيم التي آمن بها وعمل من أجلها.

رحلة في الفلسفة

بدأت حياة راسل الفكرية في دراسة المنطق الرياضي، وكان من أوائل من وظفوا المنطق لتوضيح الإشكالات الفلسفية، معتبراً أن «الرياضيات ما هي إلا شكل من أشكال المنطق بلغ درجة عالية من التطور»[3]. تأثر بالفيلسوف الألماني كانط؛ لكنه وجد أن فلسفته يكتنفها الغموض، وأنها أسقطته في وهدة من الطلاسم الميتافيزيقية المحيرة، حسب توصيفه. بعد ذلك اهتم بالفلسفة الهيجلية؛ لكن تأثيرها عليه لم يستمر طويلاً، بعد أن قرأ فلسفة هيجل بنصوصها الأصلية ووجد أفكارها مضطربة تعتمد على التلاعب بالألفاظ، حسب قوله، وهو ما خيب أمله من جديد. بعدها وجد نفسه أسيراً للتصوف الرياضي، الذي استمده من أفلاطون؛ لكن الأمر، كما كان متوقعاً، انتهى به إلى نبذ هذا التصوف في رحلة لم تنته بين مذاهب الفلسفة المختلفة.

كان لميول راسل العلمية تأثير كبير على فكره الفلسفي، وتبنى على الدوام منهجاً تشكيكياً في صوغ أفكاره الفلسفية والعلمية والسياسية والاجتماعية، فكان يشك في كل شيء؛ لأنه، حسب وصفه، كان يتوق إلى المعرفة اليقينية بالطريقة نفسها التي يتوق بها بعض الناس إلى الإيمان بالدين.

طفولةٌ خاصةٌ

ولد راسل عام 1872، في ويلز، لأسرة شهيرة اشتغلت عبر قرون عديدة بالسياسة. كان جده اللورد جون قد شغل منصب رئيس الوزراء في أربعينيات وستينيات القرن التاسع عشر. عاش راسل طفولة غير سعيدة، فقد نشأ يتيماً بعد أن توفيت والدته ولما يزل في عامه الثاني، ولم يعمر والده بعد وفاتها طويلاً، فمات بعد أقل من عامين.

عاش راسل مع جده، وكان لأسلوب أسرته المتوارث في التربية أثر بالغ في حياته، فقد تلقى تعليمه في المنزل على يد عدد من المدرسين الخصوصيين، ولم يكن لديه أصدقاء في مثل عمره يلعب ويمرح معهم، فعانى من الوحدة وطبع الخجل.

كما أظهرت أسرته منذ البداية معارضة وتهكماً شديدين على اهتمامه المبكر بالفلسفة، وربما كان لكل هذا أثره الكبير في أفكاره الفلسفية المتمردة على التقاليد وقواعد الأخلاق السائدة آنذاك.

على الرغم من طفولته غير السعيدة هذه، إلا أنها كانت غنية بالتجارب، وكانت فترة مراهقته صراعاً بين أفكاره الخاصّة والقضايا العامة، ومشاكل الإنسان المعاصر.

في سيرته الذاتية يذكر راسل أن أكبر اهتماماته في ذلك الوقت كان الدين والرياضيات، مبيناً أن نهيه عن قراءة بعض الكتب من مكتبة جده كان سبباً في الإقبال على قراءتها بنهم شديد، موضحاً: «أكاد لا أتصور أن هناك طريقة أكثر فاعلية من النهي في غرس الثقافة الأدبية في النفس». وعن اهتمامه المبكر بالرياضيات، بيّن راسل أن السبب الذي حدا به لدراستها في صباه هو «اللذة» التي كان يشعر بها في البرهنة على الأشياء، وحبه الكبير «للاستدلال العقلي»، مضيفاً أن رغبته في تعلم المزيد من الرياضيات منعه من الانتحار.

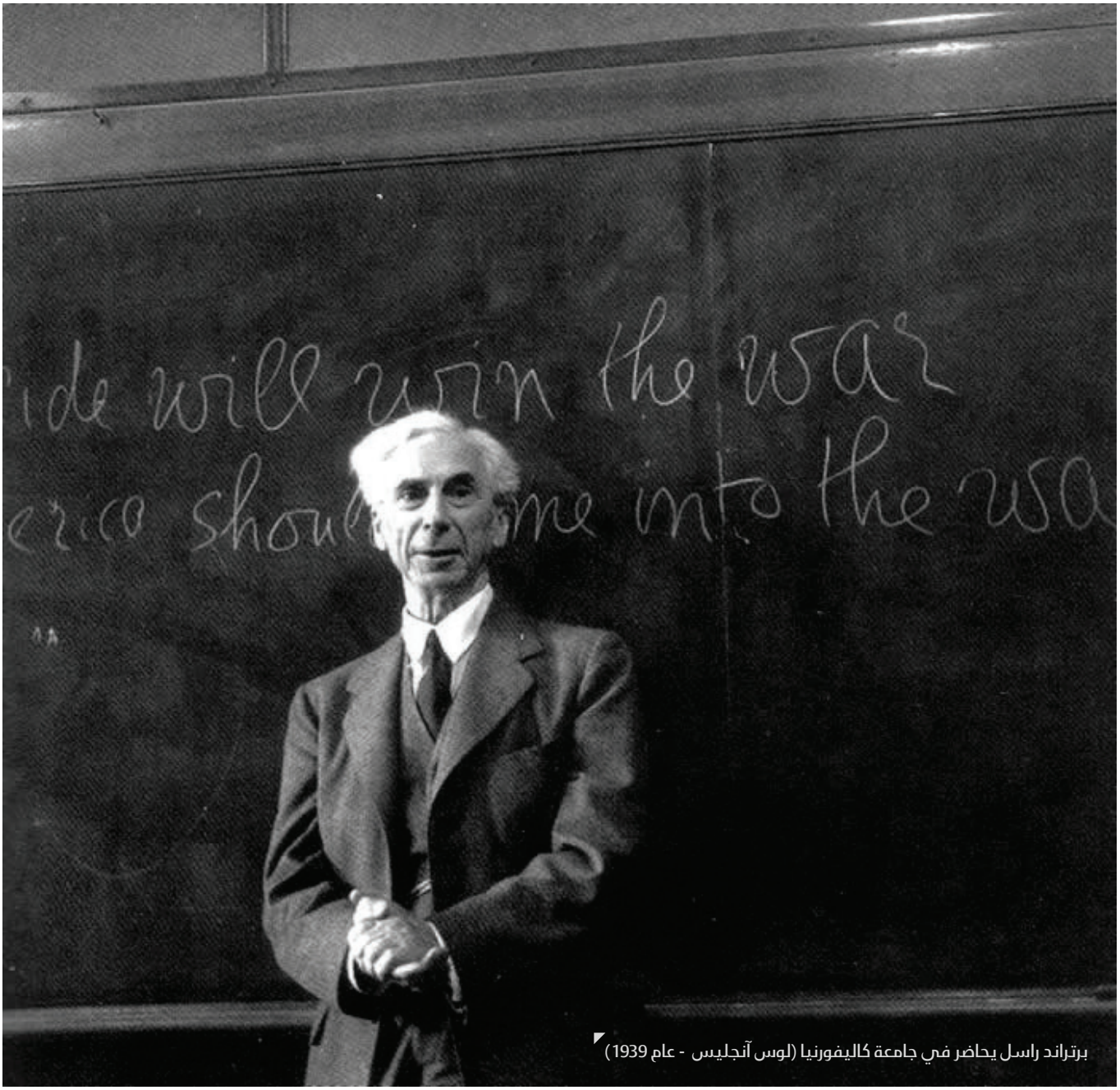

برتراند راسل يحاضر في جامعة كاليفورنيا (لوس آنجليس - عام 1939)

قبل التحاقه بجامعة كامبريدج عام 1890، أظهر راسل قدرة غير عادية على اكتساب معرفة واسعة باللغات والآداب الكلاسيكية، وهو ما مكّنه بعد ذلك من قراءة أعمال الرياضيين والفلاسفة الألمان والفرنسيين والإيطاليين بلغاتهم الأصلية. وكان لانتقاله إلى الجامعة أثر كبير في نفسيته، خاصة بعد تلك العزلة التي عاشها في صباه. عمل لفترة قصيرة في السفارة البريطانية بباريس، قبل أن يكرس حياته المهنية في المجال الأكاديمي، فحاز عام 1895 على الزمالة في جامعة كامبريدج وبدأ يدرّس الرياضيات فيها.

راسل والحرب

استطاع راسل، قبيل الحرب العالمية الأولى، أن يجمع توقيعات عدد من أساتذة الجامعة على بيان يطالب بريطانيا بعدم خوض الحرب، التي ما إن اندلعت واشتركت بريطانيا فيها حتى تخلى معظم موقعي هذا البيان عن

موقفهم المدافع عن السلام، وشرعوا بتأييد الحكومة البريطانية. يذكر راسل في مذكراته كيف أنه تجول في شوارع لندن حينها، وكيف أن مشاعر الناس العاديين نحو الحرب، وتأييدهم لها، غيّر الكثير من معتقداته الخاطئة بخصوص الطبيعة البشرية، مستنتجاً أن نزعة الإنسان إلى العدوان تجد متنفساً لها في الحروب، وأن مثل هذه النزعة هي ما يشكل عقبة في إنشاء عالم موحد يسوده السلام.

قابل الانجليز موقف راسل من الحرب باستياء شديد، معتبرين أنه «موقف خسيس ينطوي على الخذلان»؛ بل إن البعض اعتبر موقفه هذا مناصرة لألمانيا القيصرية، واتهموه بالخيانة والعمالة؛ لكن راسل، رغم هذه الضغوط، ظل على موقفه، معبراً عن استيائه مما سماه بـ «أكاذيب قومية سافرة»، ومن مشاهدته لصرح الحضارة الإنسانية التي يحبها «ينهار أمام جحافل البربرية والظلام».

راسل في السجن

في 15 يونيو 1916، حوكم راسل بتهمة الإساءة إلى التجنيد والنظام، بعد أن شارك في كتابة منشور يحتج على تجريم أولئك الذين يرفضون التجنيد في الجيش والمشاركة في القتال. حكمت عليه المحكمة في حينه بدفع غرامة مالية. كما تم طرده من عمله بالتدريس في جامعة كامبريدج. وعندما حاول السفر إلى أمريكا، بعد تلقيه دعوات من جامعة هارفارد لإلقاء محاضرات عامة فيها، رفضت وزارة الخارجية الأمريكية منحه تأشيرة السفر، كما منعته الحكومة البريطانية من إلقاء المحاضرات في بعض المدن البريطانية، بذريعة إمكانية أن تؤثر محاضراته تأثيراً سلبياً في تعبئة جنود الجيش البريطاني. كل هذا لم يؤثر على نشاطه ومواقفه، فاستمر في انتقاده الحكومة البريطانية، وهاجم في مقال

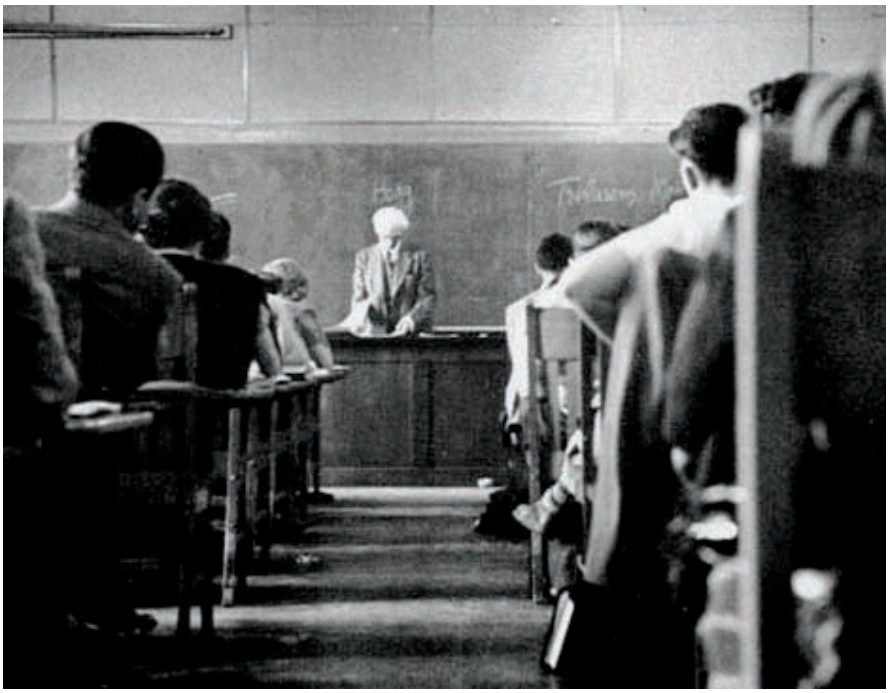

جيش الولايات المتحدة الأمريكية، متهماً إياها بالسعي للسيطرة على أوروبا عسكرياً، الأمر الذي وجدت فيه الحكومة البريطانية مبرراً لاعتقاله ومحاكمته والحكم عليه بالسجن، في مطلع عام 1918.

يصف راسل تجربة السجن هذه بأنها مغامرة بعثت فيه «الأمل بأن العالم سيكون حراً يوماً ما». واستطاع خلال الستة شهور التي قضاها في سجن «بريكستون» في لندن أن ينظّم حياته، وأن يحولها إلى ما يشبه فترة تفرغ أكاديمي كتب خلالها كتابين، هما: «مقدمة للفلسفة الرياضية»، و«تحليل العقل»، مشيراً بتهكم إلى أن الحرمان الوحيد الذي عانى منه هو حرمانه من التدخين.

خنزير شيوعي وأجير برجوازي

في كتابه «الطريق إلى الحرية»، الذي فرغ من كتابته قبل دخوله السجن، دافع راسل عن الاشتراكية، معتبراً أن اشتراكية الدولة كما وضعها ماركس، والاشتراكية النقابية التي كانت فرنسا تتبناها في ذلك الوقت، هي دعائم للحرية التي من شأنها إرساء أسس المجتمع الجديد الذي كان يرغب في إنشائه على أنقاض العالم القديم.

هذا الموقف، الذي أثار جدلاً واسعاً في الغرب، استعدى عليه اليمين الأوروبي، الذي أطلق عليه لقب «الخنزير الشيوعي».

بعد خروجه من السجن قام بزيارات إلى برلين وباريس وأميركا، وتوجه إلى روسيا عام 1920 ضمن وفد رسمي للوقوف أمام آثار الثورة الروسية. عن هذه الرحلة كتب راسل كتابه «البلشفية: الممارسة والنظرية»، الذي عرض فيه انطباعات غير متوقعة حول الشيوعية ولقائه بـ«لينين»، الذي لمس فيه «قسوة شقية»، مشبهاً إياه بـ«بروفسور متشبث بآرائه»، وكيف أنه أخبر لينين بأن الاشتراكية في إنجلترا يمكن تطبيقها دون اللجوء إلى سفك الدماء، وأن هذه الفكرة لم ترق للينين كثيراً.

قابل اليساريون في الغرب آراءه الجديدة حول الشيوعية بالاستياء الشديد، واعتبروه أجيراً للبرجوازية، واستمروا يناصبونه العداء لفترة طويلة. الجدير بالذكر أن اليمينيين لم يأبهوا كثيراً لآرائه المنتقدة للشيوعية، وظلوا يذكرون تعاطفه القديم معها، فأصبح موضعاً للاتهام والكراهية من كل جانب[4].

لقد شكل اهتمام راسل الكبير بالحرية الفردية المبعث الأساس لمعظم مواقفه السياسية من الأيديولوجيات المختلفة؛ فبينما أكد ميله الكبير إلى اشتراكية عادلة وإنسانية توازن بين المصلحة وطموح البشر، وترفض التعصب والتطرف والديكتاتورية، فقد ناهض الماركسية، لأنها «تنتهي إلى الاعتداء على حريات الأفراد وطمسهم في لجة المجموع، وتتخذ من حرب الطبقات ومن الكراهية بين أفراد المجتمع حافزاً للتقدم».

وإذا كان راسل قد رفض الشيوعية كنظام سياسي واجتماعي، على الرغم من قبوله بالغاية التي كانت تسعى إليها، فإنه رفض الفاشية، على اختلافها، رفضاً مطلقاً؛ كونها قائمة على منافاة الديمقراطية، وعلى التمييز بين أبناء الجنس البشري على أسس عرقية.

جدليٌّ وساخرٌ

إلى جانب كونه من قلة الفلاسفة والمفكرين الذين خاضوا غمار العمل السياسي المباشر، سيتذكر التاريخ لراسل أنه الفيلسوف الذي استطاع أن يصوغ أفكاره الجريئة وغير المألوفة، حول أكثر المواضيع حساسية، بصورة تهكمية بارعة، وببساطة ذكية، أثارت الإعجاب أكثر من النقد. وكان لهذا الأسلوب تأثيره المباشر في وقع هذه الأفكار على الناس وإثارتها للجدل، فها هو مثلاً يعرّف الديمقراطية بأنها «عملية تمكن الناس من اختيار الرجل الذي ينال اللوم». وعن الفرق بين العلم والفلسفة يقول: «العلم هو ما تعرف، والفلسفة هي ما لا تعرف». وعن انتصار الشر على الخير في كثير من الأحيان، يفسر راسل الأمر قائلاً: «هناك حقيقة يجب أن نعترف بها، وهي أن الأشرار دائماً يتّحِدون ويقفون صفاً واحداً، رغم ما في نفوسهم من كراهية بعضهم لبعض. أما دعاة الخير فهم متفرقون، وهذا سِرّ ضعفهم».

عام 1935، أصدر راسل كتاباً بعنوان «في مدح الكسل»، انتقد فيه أسلوب الحياة المادية التي أنهكت الإنسان المعاصر، مجادلاً بأن «السبيل إلى السعادة والرفاهية ينحصر في الإقلال المنظم للعمل؛ فالمعتقدات السائدة بأن العمل فضيلة هي أوهام آن لها أن تزول في هذا العصر»، مضيفاً أن «المدنية الحديثة وفرت على الإنسان وقته، ولذا وجب عليه أن يجد وقت فراغ أكبر، وألا يعبد العمل لذاته كما يفعل العبيد في القرون الوسطى». ومن أقواله المشهورة التي يحفظها له الناس في هذا الصدد قوله: «الوقت الذي تستمتع بإضاعته ليس وقتا ضائعاً».

أما آراؤه الأكثر إثارة للجدل فقد كانت تلك المتعلقة بالحرية الجنسية، وثقافة الطفل

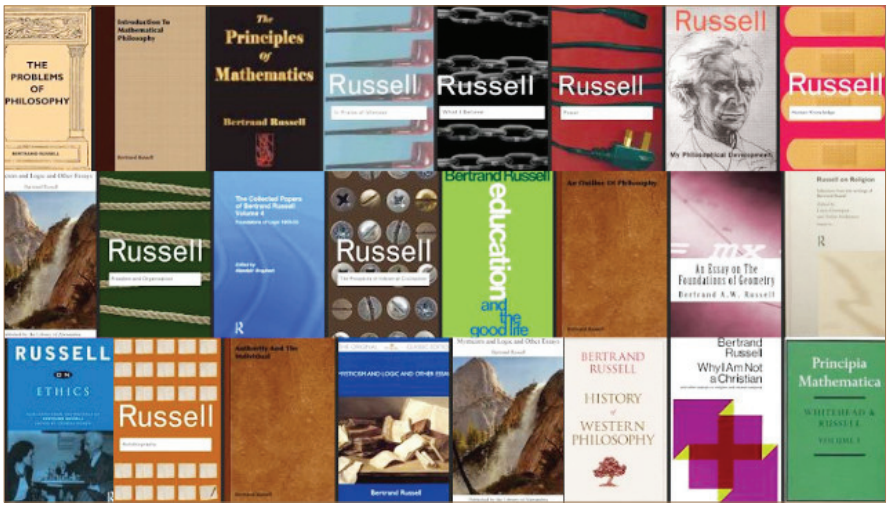

لقد شكّل اهتمام راسل الكبير بالحرية الفردية المبعث الأساس لمعظم مواقفه السياسية من الأيديولوجيات المختلفة؛ فبينما أكد ميله الكبير إلى اشتراكية عادلة وإنسانية توازن بين المصلحة وطموح البشر، وترفض التعصب والتطرف والديكتاتورية، فقد ناهض الماركسية، لأنها «تنتهي إلى الاعتداء على حريات الأفراد..

وتنشئته، وموقفه الرافض للقومية، المناهض للثقافات الدينية المعاصرة. وهي الآراء التي، وإن بدت في حينه جريئة وغير مألوفة، أثرت بشكل كبير في الحياة الفكرية والاجتماعية الغربية المعاصرة كما نلاحظها اليوم.

وعلى الرغم من شيوع أفكار راسل عند شريحة كبيرة من المثقفين في العالم، إلا أنها لم تسلم من انتقادات زملائه الفلاسفة والمفكرين. وقد كانت شدة وضوح أفكاره وحرصه على منطقية تساؤلاته وإيمانه بما يعتقد أنه يفضي إلى الحقيقة، من أهم ما انتقده الآخرون، إضافة إلى توقه الدائم إلى الحقيقة، الذي جعله في أحيان كثيرة يغير بعض آرائه ومواقفه من العديد من القضايا. ويوضح الفيلسوف النمساوي لودفيج فيتجنشتين أن ما كان راسل يعاني منه في السنوات الأخيرة هو «فقدان المشاكل»، وأنه بدأ يجد الفلسفة أكثر سهولة واستقامة مما ينبغي، فلم تعد الحيرة الغامضة تستبد به بسبب الشكوك غير المتوقعة والأسئلة الغريبة التي تعن له.

السلاح النووي ومستقبل البشرية

بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما، بدأ راسل مرحلة جديدة من النضال السياسي والفكري ضد سباق التسلح النووي، مشيراً إلى أن وجود هذا السلاح يعد تهديداً ليس فقط على السلم العالمي، بل على حياة الإنسان على كوكب الأرض. وفي عام 1956، ألقى راسل، في مجلس السلام العالمي، خطاباً مشهوراً تحدث فيه عن مستقبل السلام الدولي وخطر الأسلحة النووية وعدم جدواها في حل النزاعات بين القوى العظمى، مؤكداً أن الاستمرار في سباق التسلح النووي دون ضابط سيفضي إلى حرب «لن تبقي أحداً على قيد الحياة»، مؤكداً أن البشر يكادون «عن بكرة أبيهم في أرجاء العالم أن يكونوا أسعد حالاً وأكثر انتعاشاً إذا توقف الشرق والغرب عن التشاجر والعراك».

• راسِل (في الوسط) جنبا إلى جنب مع زوجته اديث، يقود المسيرة المناهضة للأسلحة النووية CND لندن، 18 فبراير 1961

لقد كان لإصرار راسل على نشر وتكريس الوعي العام بخطورة السلاح النووي دورٌ كبيرٌ في السياسات التي اتخذتها لاحقاً الدول العظمى، ومنظمات الأمم المتحدة، من أجل الحد من انتشار الأسلحة النووية. وفي عام 1967، أسس راسل محكمة لمقاضاة الولايات المتحدة إثر حربها في فيتنام، عُرفت بـ «محكمة راسل – سارتر»، والتي أصدرت حكماً يقضي بإدانة أمريكا على ما ارتكبته من جرائم حرب ضد الشعب الفيتنامي.

القومية العربية واحترام الذات

كان راسل في كتاباته ومواقفه السياسية معارضاً وبشدة لمفهوم القومية، التي اعتبرها «شراً وبيلاً»، مبيناً أنها عادة ما تستغل من قبل الساسة الطغاة والمغامرين لارتكاب مختلف الجرائم ضد الإنسانية، معتبراً بوضوح أن المرء «لا يستطيع أن يجد في مدحها شيئاً واحداً»[5]. وعلى الرغم من موقفه الواضح هذا، إلا أن موقفه من القومية العربية، التي انتشرت كظاهرة سياسية واجتماعية في منتصف القرن الماضي، كان مختلفاً؛ حيث يقول: «في اعتقادي أنه إذا كان من شأن هذه القومية أن توقظ الشعور باحترام الذات لدى العرب، وتجعلهم يشعرون بالقدرة على تحقيق إنجازات كبرى، فالقومية في كل هذه الحالات تكون مفيدة ونافعة». ولكي لا يكون هذا الاستثناء مناقضاً لموقفه من القومية عموماً، يستدرك قائلاً: «لكنها إذا انطوت على إلحاق الأذى بالشعوب الأخرى غير العربية، فلا يمكن النظر إليها نفس النظرة».

الغرب و«إسرائيل»: نفاق جماعي

إن الفيلسوف الذي يؤمن بالسلام والعدل، ويرفع من قيم الحريات الإنسانية، وينبذ العنف والتطرف والحروب، لا بد وأن يكون له

موقف إيجابي واضح تجاه القضية الفلسطينية، التي كانت، ومازالت، دليلاً واضحاً على الظلم الفادح الذي وقع على الشعب الفلسطيني، تحت مبررات استعمارية واهية ومتناقضة مع أبسط القيم الإنسانية المعاصرة. لهذا لم يكن مستغرباً أن يطرح راسل آراءه بكل وضوح وجرأة حول هذه القضية، وهي الآراء التي تلخصت في مقال نشره عام 1970 بعنوان «عن إسرائيل والقصف»[6]، يبدأ فيه بتوصيف علمي دقيق لجذور المأساة؛ إذ يقول: «إن مأساة شعب فلسطين أن بلدهم أُعطي من قبل قوة أجنبية إلى شعب آخر لخلق دولة جديدة له. وإنني لأتساءل: كم سيظل العالم على استعداد لتحمل هذا المشهد من القسوة الوحشية؟!»، في إشارة إلى التواطؤ الغربي مع «إسرائيل»، وما تفعله من فظائع لا إنسانية بحق الشعب الفلسطيني، وهو الأمر الذي يستنكره راسل قائلاً: «لا يوجد شعب في أي مكان في العالم يقبل بأن يُطرد، وبشكل جماعي، من بلده؛ فكيف يمكن لأي شخص أن يطلب من الشعب الفلسطيني القبول بعقاب لا يتسامح معه أي شخص آخر؟!»، مضيفاً: «كثيراً ما قلنا: يجب علينا أن نتعاطف مع إسرائيل، بسبب معاناة اليهود في أوروبا على أيدي النازيين؛ غير أن ما تقوم به إسرائيل اليوم لا يمكن التغاضي عنه، واستدعاء فظائع الماضي لتبرير فظائع الحاضر هو نفاق جماعي».

لقد آمن راسل بأن قضية اللاجئين الفلسطينيين وحقهم في العودة هي القضية المحورية التي من خلالها يمكن الوصول إلى حل جذري للقضية الفلسطينية برمتها، فها هو يقول: «من الواضح جداً أن اللاجئين لديهم كل الحق في الوطن الذي طردوا منه، وسيظل حرمانهم من هذا الحق جوهر النزاع المستمر»، وأن «التسوية الدائمة والعادلة للاجئين في وطنهم عنصر أساسي في أي تسوية حقيقية في الشرق الأوسط».

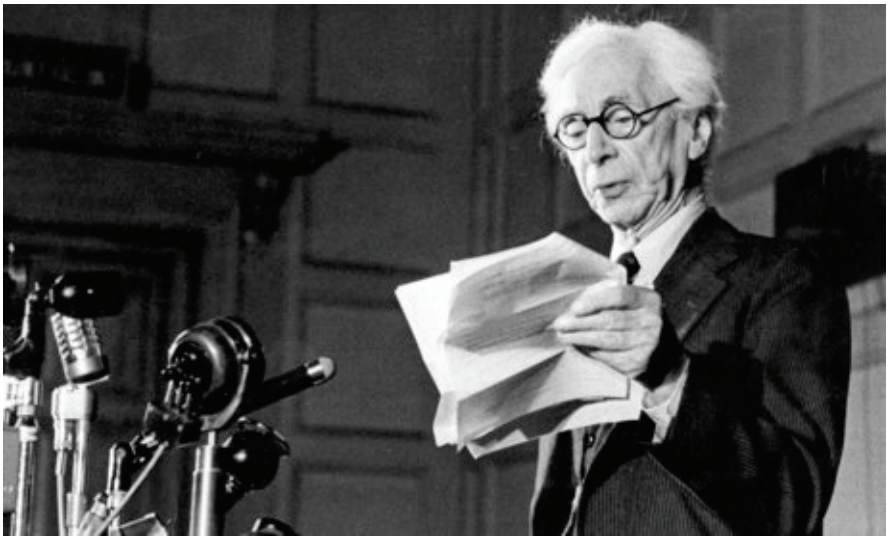

لقد آمن راسل بأن قضية اللاجئين الفلسطينيين وحقهم في العودة هي القضية المحورية التي من خلالها يمكن الوصول إلى حل جذري للقضية الفلسطينية برمتها..

وفي نفس المقال يشير إلى استغلال الغرب مأساة الشعب الفلسطيني للزج بالوطن العربي في حالة من اللااستقرار وإلهائه عن الاهتمام بقضايا التنمية والديمقراطية؛ إذ يقول: «لا تقوم إسرائيل فقط بدفع عدد كبير من اللاجئين إلى البؤس، ولا يتعرض فقط كثيرٌ من العرب الذين ما يزالون تحت الاحتلال إلى الحكم العسكري، بل تقوم أيضاً بالدفع بالدول العربية التي استطاعت أن تتحرر في الآونة الأخيرة من الاحتلال الاستعماري إلى الفقر؛ إذ ستكون لمتطلبات التسلح الأسبقية على متطلبات التنمية الوطنية».

ويختتم مقالته بالتأكيد على ضرورة أن تنسحب «إسرائيل» أولاً من الأراضي التي احتلتها في 1967، قائلاً: «على كل من يرغب في رؤية نهاية لسفك الدماء في الشرق الأوسط أن يتأكد من أن أية تسوية لا ينبغي أن تحتوي على بذور صراع مستقبلي. العدالة تقتضي أن يكون الانسحاب الإسرائيلي من جميع الأراضي المحتلة في يونيو 1967 هو الخطوة الأولى نحو أية تسوية. هناك حاجة إلى حملة عالمية جديدة للمساعدة في تحقيق العدالة لشعب عانى طويلاً في الشرق الأوسط».

الجدير بالذكر أن دعوة راسل لانسحاب «إسرائيل» من الأراضي العربية المحتلة كانت آخر موقف سياسي له قبل وفاته، وقد صيغت كبيان تم قراءته في المؤتمر الدولي للبرلمانيين، الذي عقد في القاهرة يوم 3 فبراير 1970، بعد يوم من وفاته.

شواغل راسل الثلاثة

كتب راسل، الذي عاش زهاء قرن من الزمن (1872-1970)، عن ثلاث قضايا رئيسية

شغف بها خلال حياته الطويلة، واستولت على عقله وشغلت تفكيره ووجدانه، وهي: الشوق إلى الحب، البحث الحثيث عن المعرفة، والعطف والشفقة على الجنس البشري في صراعاته الفردية والجماعية والدولية.

عن الشاغل الأول يقول: «لقد عشت أولاً أنشد الحبّ بكل جوارحي؛ لأنّ فيه متعة كبيرة، بل نشوة آسرة جعلتني مستعداً لأن أضحي ببقية عمري من أجل ساعات ضئيلة من الحبور. لقد لهثت وراء الحبّ جاهداً لأنه يبعد عني شبح الوحشة المخيفة والوحدة المرعبة التي ترتعد لها فرائص إدراكي، فكأنني أسير على شفير هاوية باردة مظلمة لا قرار لها، وسأسقط فيها. وإنني بالحب الذي عرفته تمثّلت مسبقاً رؤيا سماوية صغيرة كالتي ينشدها القديسون والشعراء. هذا ما نشدته وأراه ذا فائدة كبيرة في حياة الإنسان، وهذا ما وجدته في النهاية».

أما عن الشاغل الثاني فيقول: «لَكَم رغبت في أن أفهم ما يعتمل في نفس الإنسان، كما أحببت أن أعرف لماذا تشع النجوم، وجرّبت أن أفهم عند فيثاغورث القوة التي أوقفت الرقم عن التأرجح في خضم الفيض وجريان التدفق»، مضيفاً بتواضع العالم الحقيقي: «قليل من هذا أنجزته وليس الكثير».

وعن الشاغل الثالث يقول: «إذا كان الحبّ، والتوق إلى المعرفة، قد مكناني من الارتفاع إلى السماء، فإن الحسرة على الإنسان ردّتني إلى الأرض. إن أصداء صرخات الأمم هدهدت في أعماق قلبي... الأطفال في سنوات الحرب والمجاعة يصيحون. إنهم ضحايا الظلم البشري... وكبار السن يصبحون عبئاً على أبنائهم... إن الوحدة والفقر والألم جميعها تجعل من حياة البشر سخرية»، مضيفاً

بأسلوبه المتواضع المعتاد: «كم رغبت في تخفيف الشر فلم أنجح، ولذا عانيت!».

رسالة أخيرة

في مقابلة تلفزيونية شهيرة عام 1959، وجه راسل رسالة أخيرة للأجيال القادمة قائلاً:
أود أن أقول لهم شيئين: الأول فكري، والآخر أخلاقي. ما يخص الشيء الفكري هو الآتي: عندما تدرس أي مسألة أو تتأمل في أي فلسفة، فقط اسأل نفسك: ما هي الوقائع؟ وما هي الحقيقة التي تعززها تلك الوقائع؟ لا تترك نفسك تنحرف مطلقاً بما تتمنى أن تؤمن به، أو بما تظن أنه قد يحمل آثاراً اجتماعية مفيدة لو أومن به. انظر فقط وبشكل مؤكد إلى الوقائع.

أما الشيء الأخلاقي الذي أود أن أقوله لهم فهو بسيط جداً؛ أود أن أقول: الحب حكمة والكراهية حُمق. في هذا العالم الذي يترابط أكثر وأكثر بشكل وثيق، علينا أن نتعلم التسامح مع بعضنا البعض. علينا أن نتعلم التصالح مع حقيقة أن بعض الناس قد يقولون ما لا نحب. بهذه الطريقة فقط نستطيع أن نعيش معاً. ولو أردنا العيش معاً –لا الموت معاً– فيجب علينا تعلم شيء من الإحسان وشيء من التسامح، الأمر الذي يعتبر جوهرياً للغاية لاستمرار الحياة البشرية على هذا الكوكب.

المراجع

(1) د. مصطفى غالب: «برتراند راسل.. في سبيل موسوعة فلسفية»، دار مكتبة الهلال، 1982م.

(2) ertrand Russell, Autobiography of Bertrand Russell, Vols. (1-3), London: George Allen & Unwin, 1951–1969.

(3) آلن وود: «برتراند راسل، سيرة حياة»، ترجمة: رمسيس عوض، المشروع القومي للترجمة، 1998م.

(4) د. رمسيس عوض: «برتراند راسل أمام المحاكم الانجليزية والأمريكية»، كتاب الهلال، 2008م.

(5) «برتراند راسل يحاور نفسه»، ترجمة: جلال العشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م.

(6) Bertrand Russell, On Israel and bombing, Various Writings, 1970.